الحرية من التقاليد البالية في رواية شقة الحرية

FREEDOM FROM OUTDATED TRADITIONS IN THE NOVEL "SHIQQATUL HURRIYAH

د. مُحَمَّد ميكائيل *

ABSTRACT:

The novel "Shiqqatul Hurriyah" (Apartment of Freedom) is one of the most wonderful novels written not only in the Saudi Arabic literature but also in complete Arabic literature. It deals with important issues and carries in its fold conflicting ideas and divergent views on politics, religion and society and includes many ideas, issues, concerns and opinions on Arab society that are completely different from the other. All of them affect the reader's mind greatly. Because of importance and prestigious position of this novel, it was translated into different world living languages. The Saudi writer, novelist, poet, Dr. Ghazi Abdul Rahman Al-Qusaibi, who left behind a brilliant and rich literary legacy, wrote in various literary arts, and lit up the name of Saudi literature throughout the world. He was a talented poet as well as a great novelist, and his novels are among the best written in Saudi literature. He has poetry collections and many articles on political thought.

KEYWORDS: *Apartment of Freedom*, Novel, Conflicting ideas, Different opinions, Saudi literature, Arab society issues.

الكلمات المفتاحية: شقة الحرية، رواية، أفكار متضاربة، آراء متبائنة، الأدب السعودي، المجتمع العربي، القضايا.

ملخص البحث:

إن رواية "شقة الحرية" من أروع ما كتب لا في الأدب السعودي فحسب بل في الادب العربي كله أيضا التي تعالج قضايا هامة وتحمل في طيها أفكاراً متضاربة وآراء متباينة عن السياسية والدين والمجتمع وتضم عديدا من الأفكار والقضايا والهموم والآراء عن المجتمع

* الباحث في الدكتوراه بقسم الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهرلال نهرو بدهلي الجديدة، الهند

العربي تتغاير تماما عن الآخر وكلها تؤثر في ذهن القارئ تأثيرا كبيرا، ولأهمية هذه الرواية ومكانتها العالية ترجمت إلى اللغات العالمية الحية المختلفة. الأديب السعودي الروائي الشاعر الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي الذي ترك وراءه تراثا أدبيا باهرا وزاخرا وكتب في فنون أدبية مختلفة وأضاء اسم الأدب السعودي في العالم كله. فإنه كان شاعرا موهوبا كما كان روائيا قديرا، ورواياته من أحسن ما كتبت في الأدب السعودي. وله دواوين شعرية كما له مقالات عديدة في الفكر السياسية.

الحرية من التقاليد البالية:

رواية شقة الحرية رواية تحتوي على أربع مائة وثلاث وستين صفحة، ومعنى ذلك أنها رواية طويلة وإن لم تكن من أطولها حجما، وطول الرواية يعني تعدد القضايا والموضوعات. هذه الرواية معروفة بـ" شقة الحرية "وعنوانها يدل على ما تحتوي عليه من معان وأفكار، وهذا الأمر لاينطبق على كل الروايات الموجودة بين أيدينا حيث أن عنوان الرواية يدل على مضمونها ولكنه صحيح مائة في المائة بالنسبة لهذه الرواية، الحرية بمعناها العام والشامل مطلب هذه الرواية و خلاصتها و محورها وهي دعوة صارخة إلى الحرية من التقاليد البالية والتزمت العنيف والأحكام والأعراف القديمة التي كانت الأمة العربية مشدودة ومكبولة بها من حقبة تاريخية ممتدة، والحرية التي دعا إليها الدكتور غازي القصيبي عبر هذه الرواية الشهيرة هي حرية الرأي والفكر والحرية الفردية والاجتماعية، والاستقلال الحكومي ودمقرطة النظام البيروقراطي، وحرية المؤسسات المختلفة التي تدعم الديموقراطية وتعمل لأجلها، والجدير بالذكر أن الحرية المنشودة في الرواية هي الحرية الغربية والأوربية وليست الحرية الإسلامية، مع أن فؤاد" الشخصية الرئيسية (Main Character) في الرواية يحاول إيجاد التوفيق بين القومية العربية والإسلام وبين الاشتراكية والإسلام ولكنه يخيب ويفشل، وشخصيات هذه الرواية رغم نوازعها المختلفة للحرية تؤمن بالإسلام وقوته وتفتخر دوما بالانتماء إليه إلا أنها لا ترى دورها الكامل في النظام الحكومي والاقتصادي والسياسي وتتبنى فكرة حصر الإسلام

في حدود الأمور الشخصية للأفراد كما هي الظاهرة الآن لدى المتنورين المزعومين الذين يدعون بالإسلام ويؤكد على ما قلناه هذا المقتطف من الرواية عندما يظهر يعقوب آراءه الدينية أمام رفيقه الشيوعي الأستاذ سين قائلا" :سوف أخبرك بكل ما يدور في رأسي حول الدين .أنا شيوعي وسوف أظل شيوعيا حتى أموت .ومع هذا، فأنا لا أستطيع أن اتنكر لنشأتي وتربيتي .لقد ولدت مسلما، ورضعت الإسلام مع الحليب، ولايمكن أن أتخلص من هذا الجزء من نفسي .أتعرف لماذا اعتنقت الشيوعية؟ اعتنقتها بحثا عن الحرية .وصلت إلى الماركسية بعد مراحل فكرية عديدة، وكنت في كل مرحلة أبحث عن المذهب الذي يحمي حرية الإنسان .ثم اكتشف أنه لايمكن أن توجد حرية حقيقية إلا في ظل الشيوعية .إذا أردت أن أصلي فسوف أصلي .وإذا أردت أن أصوم فسوف أصوم .إذا قررت أن أكون ماركسيا مسلما فسوف أكون ماركسيا مسلما .هل تفهمني؟ أريد أن يكون ".موقفي من الدين نابعا من اقتناعي، ومن اقتناعي وحده"[1].

هذا والمقتطف الثاني من نفس الرواية وهو أن عبد الرؤوف (إحدى الشخصيات في الرواية) يقول لفؤاد إني لا أؤمن بالاشتراكية لأني أؤمن بالإسلام فيقول فؤاد" :ما علاقة هذه بذلك؟ الإسلام دين والاشتراكية مذهب اقتصادي. عبد الرؤوف: الإسلام منهج متكامل. رؤية شاملة تنتظم كل شيئ. شؤون الاقتصاد وشؤون السياسية والسلوك الشخصي والعبادات .لايمكن أن تنتقي من هنا وهناك مباديء ونظريات .إما أن تكون مسلما أو تكون اشتراكيا. فيقول فؤاد لعبد الرؤوف :رؤوف، هذه نظرة رجعية .لم أكن أعرف أنك تعتنق مثل هذه الأفكار من قبل ."[2] .فتجلى لنا أبعاد الحرية التي تضمنتها الرواية.

هذا وأن جميع الشخصيات الرئيسية والفرعية ماعدا ماجد وعبد الرؤوف، يتلذذون بالمغامرة الجنسية ويشربون البيرة والشمبائن ويدخنون السيجارة والسيكارة بل ويتعاملون

[1]. القصيبي، غازي عبد الرحمن -شقة الحرية -ص299 .
[2]. القصيبي، غازي عبد الرحمن -شقة الحرية -ص79 .

مع البنات التي يبعن أجسادهن لقاء الأجور، ويفعلون كل ذلك من باب الاحتفال بالحرية كما تشير الرواية إليها.[3] هذا يظهر مفهوم الحرية في هذه الرواية.

أما قصة هذه الرواية فتدور أحداثها في عهد جمال عبد الناصر قبل الوحدة العربية بسنة وتنتهي في عام انفصال الوحدة أي في نهاية عام ألف وتسعمائة وواحد وستين الميلادي (1961م). وهذا هو العهد الزاخر بالأيدولوجيات والنتظيمات والأحزاب والعهد الحافل بجهابذة الأدب العربي وقادة الثورة وكان العالم يشهد فيه النقلة الحضارية الواسعة وكل هذا أثر في جعل قصة هذه الرواية ممتعة وشيقة وحقا أنها تشد القراء بجمالها الآسر وحبكتها الروائية الممتازة والقصة هي قصة بعض الطلاب الجامعيين الذين غادروا بلادهم إلى القاهرة لحصول التعليم النوعي والممتاز في مصر، وقد كانت موئل طلاب البلاد العربية ومركزها التعليمي المفضل حينذاك، وذلك بوجود مدارس وجامعات متميزة أنشئت في مصر بعد النهضة الحديثة التي بدأت عام ألف وسبعمائة وثمانية وتسعين الميلادي 1798م بغزو نابليون بونابرت على مصر، وتبدأ النهضة التعليمية بالتحديد في مصر في عهد مُحَمَّد على ورقاها ونماها اسماعيل الأول والثاني. والحكومات التي جاءت بعدها لم تتغاض عن دور التعليم، ولذا نجد هناك أرقى الجامعات العربية من مثل جامعة القاهرة، وجامعة الاسكندرية وجامعة عين شمس وغيرها، وكان يدرس فيها الأساتذة الغربيون وأساتذة العرب الذين تعلموا ودرسوا في أشهر الجامعات الأوربية، ولذا أصبحت مصر محط أنظار جميع البلاد العربية والإسلامية، والمجموعة الطلابية التي تحدث عنها الدكتور غازي القصيبي هم من البحرين وهي بلدة صغيرة في خريطة الدول الخليجية، وحزموا حقائبهم إلى مصر في ستينات من القرن العشرين الميلادي لحصول التعليم، وقد كانوا سمعوا عن مصر ودرسوا عنها في الكتب والروايات لعباقرتها من مثل نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وعباس محمود العقاد وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس وغيرهم، فأعجبوا بما سمعوا و درسوا عن الحياة

[3]. المصدر السابق -ص111 .

المصرية والحرية المتواجدة فيها، والأفكار والنظريات التي كانت توجد فيها، فرأوا أن يعيشوا في مصر ويتلذذوا بحرياتها ولذا استأجروا شقة قرب الجامعة وسموها بالاتفاق، بعد أن اختلفوا في التسمية، ب" شقة الحرية "ولاحظوا هذا المقتبس من الرواية:

"في صبيحة 10 مارس 1958 م انتقل الفرسان الأربعة إلى الشقة رقم6 ، في الدور الثالث من العمارة التي تقع في منتصف شارع الدري. كان أول قرار ينتظرهم هو اسم الشقة .وتعددت المقترحات:

-الرفاع.

-الحد

-العروبة.

قال قاسم بمرارة:

-كل شئي هنا الآن اسمه" نصر"، سموها" شقة نصر "وارتاحوا.

أوشك الباقون أن يوافقوا نكاية في قاسم، إلاّ أن يعقوب اعترض:

-لا !الحرية !جئنا هنا لممارسة حريتنا .سوف نسميها" شقة

الحرية."

ووفق على الاسم بالاجماع"[4].

وهذا يظهر تطلع هذه الثلة من الشباب إلى الحرية، والجدير بالذكر لكل واحد من هؤلآء الشبان شخصيته المستقلة وتفكيره ومغامراته ولكن تجمعهم كلهم شقة الحرية

[4]. القصيبي، غازي عبد الرحمن -شقة الحرية -ص103 -104.

بعض الهموم المشتركة التي منها ما يتعلق بالتحصيل والدراسة ومنها يتعلق بالسياسة وأكثرها يحوم حول الجنس والحب ففؤاد، الراوي والبطل في الرواية يتنمي إلى القومية والبعث والحزب القومي، ويجرب كل هذه الأفكار ويزنها بالمقايس العقلية والنقلية ويوازنها بالإسلام ولكنه يتخلى عنها جميعها في آخر الرواية وبعد تجارب متعددة .ومع أنه لم يزل متشبثا بالفكر الناصري أي فكرة جمال عبد الناصر ويتحاج مع أصدقائه ورفقائه لتثبيت هذه الفكرة، وكثيرا ما يردد اسم جمال عبد الناصر، ولكنه يتخلى عنه في آخر الرواية عند ما يبلغه الخبر عن فشل الوحدة العربية وتهاون جمال عبد الناصر في ذلك. أما قاسم فهو من أسرة تنتمي إلى فئة البورجوازيين الجدد وكان لايؤمن بالاشتراكية ولا بالقومية ولا بشعارات عبد الناصر بل كان يحب الفكرة الرأسمالية كما يقول عنه راوي القصة فؤاد" أما هو فيعرف طريقة، يعرف الأولوية الوحيدة الحقيقية في هذا العالم .الشيئ الذي يعشقه الكبار والصغار .الذكور والإناث خصوصا الإناث! الراسماليون والشيوعيون. الحكام والمحكومون .المؤمنون والملحدون .الشيئ الوحيد الذي لا يحتاج إلى نظريات أو شعارات أو هتافات .الحقيقة الأساسية في الحياة: البيزات ![5]"

أما يعقوب فيبدو متذبذبا بين الوجودية والفرويدية ثم ينتهي بالانتماء إلى الحزب الشيوعي فيقفل ثم يطلق سراحه وينفي من مصر إلى بيروت ولكن كمال جنبلاط، رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي الراحل يتوسط له عند جمال عبد الناصر فيرجع إلى القاهرة لإكمال دراسة ويتوب من فعلته، وشخصية يعقوب في الرواية شخصية علمية لايزال يعرض أقوال كارل ماركس و سيجموند فرويد وغيرهما من المفكرين الغربيين لمعالجة وتحليل كل القضايا الواردة عليه ولايكف عن الكلام البذئ والتصريح الجنسي المكشوف في ذلك، يغامر المغامرات الجنسية مع الفتيات والعجائز وكل نوع من البنات محتسبا أنه يعمل على الموقف الوجودي الغربي.

[5]. القصيبي، غازي عبد الرحمن -شقة الحرية -ص307 .

وعبد الكريم شيعي يحاول التأقلم مع أهل السنة وقد بين الدكتور غازي القصيبي مشكلة الشيعة والسنة في البحرين خصوصا وفي العالم العربي عموما وتكلم عن أبعاد هذه (character)خلال هذه الشخصية المشكلة وعمق جذورها والخلافات بينها وبين السنة، وهو يقع في حب بنت مصرية سنية وعند ما يعلمه أبوه ذلك، يستنكر على هذا الزواج ويهدد ابنه بالبراءة منه .أما ماجد فينتمي إلى الحزب القومي الذي كان مقره الشام وزعيمه جورج حبش وبعض القوميين الآخرين ومنهم غسان كنفاني وهناك شخصيات آخرى مثل عبد الرؤوف ونشأت فينتمي الأول إلى الإخوان المسلمين وينتمي الثاني إلى الطبقة البورجوازية التي لاتدين بشيئ مثل زميله البحريني قاسم، وينضم إلى الدولة ويصبح مفوضا. هكذا نرى أن غازي القصيبي أراد أن يوزع هؤلاء الشبان على كافة النزعات والاتجاهات والطبقات التي كانت سائدة في مصر وبعض البلدان العربية في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات الميلادية .وهو يقتدي في ذلك، فيما يبدو، بثلاثية نجيب محفوظ التي تحكي عن فترة سابقة .وهو أضفى هذا التنوع في الاتجاهات والانتماءات السياسية الكثير من الحركة والحيوية .ولكن هذه الشخصيات الشابة لا تهمها السياسية فحسب، بل لابد أن تمتزج كذلك بدقات القلوب وإغراءات الجسد .لذلك، فإن لكل واحد منهم تجارب حب ومغامرات مثيرة لابد أن تسجل وتروي بكل صراحة وصدق .ونلاحظ أن أحداث الرواية جميعها تسرد عن طريق الراوي العليم الذي يعرف ما يدور ويتدسس إلى نفسية كل شخصية من هذه الشخصيات، ".معبرا عن أفكارها وموافقها تجاه الأزمات وكافة المناسبات"[6].

وقد ضمنت الرواية قضايا عديدة شائعة في ذلك العصر، وتناول الدكتور القصيبي معظم القضايا المعاصرة وتحدث عنها في روايته، كما لم يدع أهم الاتجاهات الفكرية التي تسود العالم العربي بل والعالم كله في ذلك الوقت، من مثل الشيوعية والاشتراكية

[6]. . سيدو، د .أمين سليمان و القعمي، الأستاذ محمد بن عبد الرزاق - موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث - المجلد الخامس -ص 33-34. (تلخيص و تضمين)

والرأسمالية والوجودية والبعثية والماركسية وحركة إخوان المسلمين والقومية العربية والتنظيمات الأخرى .إنه جعل شخصيات روايته ممثلا لتلك الاتجاهات المختلفة وبين ما فيها من ضعف وانفكاك وعدم صلاحياتها لحل قضايا العالم العربي والإسلامي ولم يصل الكاتب والروائي القدير الدكتور غازي القصيبي إلى نتيجة حتمية في روايته تجاه أية نظرية وفكرة وبعد بيان مالها وعليها والنقاش الحاد حولها عبر لسان شخصياته، ترك القاري أن يعمق وينظر في قضية الحرية، فنهاية هذه الرواية نهاية مفتوحة كما قلنا سابقا. ولا يسعني إلا أن نعترف بأن الدكتور القصيبي صور تصويرا رائعا الثورات والانقلابات وصور جدية أصحابها حتى أنهم كانوا يضحون مصالحهم الشخصية لأجل الفكرة الثورية التي ينتمون إليها، كما فعلت سعاد صديقة فؤاد التي كانت منضمة بالحزب البعثية .إنها فضلت الالتزام بالفكرة البعثية على الصداقة مع فؤاد بعد أن ما جرى بينهما من الحب والغرام، وكذلك التزم يعقوب بالمبدأ الشيوعي وعمل لأجله حتى أنه ألقى نفسه في غياهب السجن ونفي من مصر، وقد كان يعمل عمله الثوري على حساب الدراسة، وبالتالي فشل في الامتحان النهائي . و ينتابنا شعور عجيب من الفرح والقلق ومشاعر عميقة التأثر بعد دراسة روايته، ربما نفكر ما أحلى زمن الثورات ! وحينا نتصور ماأتعس زمن الانقلابات ! وتارة أخرى نجد أنفسنا في متاهات لا يتبين لنا الصواب من الخطا والخطأ من الصواب .....وحقا إن زمن الثورات وعصر الصراع الفكري زمن عجيب. وقد أحسن الروائي القدير الدكتور غازي القصيبي تحليل هذا الزمن في روايته، ولذا تضم الرواية قضايا عديدة لا حصر لها وأفكارا متنوعةلا يمكن لدارس ومحلل أن يحدد الفكرة الرئيسية التي تدور حولها الرواية، لأن الرواية بحر واسع للأفكار العديدة ومع ذلك يمكننا القول أن الفكرة الرئيسية التي تدور حولها رواية" شقة الحرية "هي الحرية بنفسها بمعناها العام والشامل ومدلولها العربي والغربي فهذه الرواية بمثابةدستور الحرية للبلاد العربية، وهؤلاء الشباب المتطلعين إلى الحرية أعني بها شخصيات هذه الرواية عند ما صاغوا دستور شقة الحرية التي كانوا يسكنونها فكانت

مادته الأولى:

شقة الحرية جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، يسكنها بصفة أصلية كل من عبد الكريم الشيخ ويعقوب الحدي وقاسم صدفي وفؤاد الطارف وبصفة فرعية كل من عبد الرؤوف بحيري ونشأت محرم وهي شقة ذات سيادة واستقلال، تقوم على مبادئ المساواة والعدل والديموقراطية، وتؤخذ. "القر ارات بالأغلبية، ويجوز لأي عضو طرح أي موضوع للنقاش"[7].

خلاصة القول أن شقة الحرية مساحة فكرية نقل فيها الدكتور غازي القصيبي من الغزل والسياسية والتجارب إلى ذاك المناخ الثقافي والفني الغني والأمور العديدة لها صلة بالفرد والمجتمع للتمتع بالحرية كما أنه متعنا برسائله وقصصه والحوار الأدبي مع أعلام الأدب العربي من مثل نجيب محفوظ وعباس محمود العقاد والدكتور طه حسين وأنيس منصور، حقا أن شقة الحرية أفاق رحبة لأفكار غزيرة ومفاهيم عديدة وهي خيال جوال في التاريخ، في السياسية، في العلاقات الإنسانية الروحية والجسدية وفي كل شئ .وفكرة هذه الرواية أشبه ما تكون سلة من الفواكه المختلفة، كل فاكهة تمثل تيارافكريا يختلف ويتصادم مع تيار آخر وهي تصور حقبة من الالتهاب الفكري في العالم العربي ما بين ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين ألف تسعمائة وسبعة وستين الميلادي (1948-1967م) ولاسيما ما بين الستينات والستعينات.

[7]. القصيبي، غازي عبد الرحمن -شقة الحرية -ص104 .

المراجع والمصادر

1. إبراهيم، مصطفي عبد الرحمن، في النقد الأدبي القديم عند العرب، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، عام 1998.

2. التكريتي، بثينة عبد الرحمن، جمال عبد الناصر نشأة وتطور الفكر الناصري، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، عام 2000م

3. الحازمي، الدكتور حسن بن حجاب، البناء الفني في الرواية السعودية: دراسة نقدية تطبيقية، مكتبة الملك فهد الوطنية- السعودية، الطبعة الأولى، عام 2006م.

4. السدحان، عبد الرحمن بن مُحَمَّد، غازي القصيبي الحاضر الغائب في ذاكرة القلم، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، عام 2011م.

5. سيدو، الدكتور أمين سليمان، و القعمي، الأستاذ مُحَمَّد بن عبد الرزاق، موسوعة الأدب العربي الحديث، دار المفردات للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى عام 2001م.

6. الصفراني، مُحَمَّد بن سالم بن سعيد، شعر غازي القصيبي: دراسة فنية، الجامعة الأدرنية، عام 1995م.

7. الطيار، ملكة بكر، التطور الاقتصادي والاجتماعي للمملكة العربية السعودية، مركز

الدراسات العربي – الأوربي، عام 1997م.

8. العقاد، عباس محمود، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، 1965م.

9. القصيبي، الدكتورغازي عبد الرحمن، التنمية الأسئلة الكبرى، (بحث) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، عام 1992.

10. القصيبي، الدكتورغازي عبد الرحمن، حياة في الإدارة: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

11. القصيبي، الدكتورغازي عبد الرحمن، سيرة شعرية (المجلد الأول)، دار تهامة، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، عام 1988م.

12. القصيبي، الدكتورغازي عبد الرحمن، سيرة شعرية (المجلد الثاني)، دار تهامة، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، عام 1996م.

13. القصيبي، الدكتورغازي عبد الرحمن، شقة الحرية، رياض الريس للكتب والنشر، لندن و بيروت، الطبعة الخامسة، عام 1994م.

14. مندور، الدكتور مُحَمَّد، في النقد والأدب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع الفجالة، القاهرة، عام 1988م.

الجرائد والصحف:

1. جريدة "الاتحاد" الصادرة من الإمارات العربية المتحدة- الخامس من شهر يونيو- عام 2012.

2. المدينة، صحيفة يومية الصادرة عن مؤسسة المدينة للصحافة والنشر- يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر أغسطس عام 2010م.

3. جريدة ‘‘الأيام’’ الصادرة من البحرين- نقلا عن شقة الحرية.

4. جريدة ‘‘الأيام’’ الصادرة من البحرين- نقلا عن شقة الحرية.

5. مجلة ‘‘الحوادث’’ الصادرة من لندن- نقلا عن شقة الحرية.